دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	نحو علم نفس اجتماعي عيادي
المصدر:	الفكر العربي
الناشر:	معهد الإنماء العربي
المؤلف الرئيسي:	مكي، عباس
المجلد/العدد:	مج 1, ع 6
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1978
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	61 - 80
رقم MD:	415843
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	علم النفس الاجتماعي، السلوك الانساني، العلاج النفسي، الابحاث العيادية، النظريات العلمية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/415843

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

نحو علم نفس اجتماعي عيادي

د. عبّاس مكي

تعددت ميادين العلوم الاجتماعية والانسانية، عامة تبعاً لتعدد النظريات والمنطلقات في هذه المجالات. فمن علم الاجتماع الى التاريخ الى الاقتصاد الى السياسة الى... علم النفس وميادينه المختلفة.

والملاحظ ان العلوم الانسانية اعتمدت مبدأ التقليد «للعلوم الصحيحة»، موضوعاً ومنهجية، وهي تطمح للوصول الى خاصة العلم الدقيقة والمضبوطة؛ على ان التقليد هذا كشف عن تشابك كبير ومتعدد للمتغيرات المسؤولة عن «الظاهرة الانسانية» التي يصعب كثيراً عزل عناصرها على حدة... وبشكل يفوق ما يحدث في «الظاهرة الطبيعية» التي تدرسها العلوم الصحيحية.

ان التطورات في تحديد المعطيات الدقيقة لخصائص علم ما يتركز حول الموضوع الذي يدرسه هذا العلم من ناحية، ومن ثم حول المنهجية والتقنيات المتبعة والصالحة لدراسة الموضوع المحدد من ناحية ثانية. وكل ذلك يسمح بالحديث عما يسمى باستراتيجية البحث (الموضوع والمنهجية). ولقد تأثرت أبحاث العلوم الانسانية عامة، وعلى مدى تطورها التاريخي، باستراتيجيتين اساسيتين: التجريبية (العددية الكمية)؛ والعيادية (الكيفية النوعية).

وواضح تبعاً لذلك، تأثر العلوم الانسانية بالعلوم الصحيحة: من الطب الى الرياضيات إلى الاحصاء وإلى الفيزياء.. وغيرها.. حيث الاهتمام يتراوح (نسبة لهدف البحث) بين القواعد العددية والكمية للظاهرة وبين القواعد النوعية، الكيفية أي العيادية والدينامية للظاهرة ذاتها، ويمكن ان تتضح تبعاً لذلك الصعوبات القصوى التي تعترض مسار العلوم الانسانية في بحثها عن الدقائق الكمية والنوعية لظاهراتها المدروسة، وذلك نظراً للعوامل الكثيرة جداً التي تدخل في الظاهرة الانسانية وتجعل منها مركباً علائقياً بالغ التشابك. هذا ما يفرض علينا حصر بحثنا الحالي في جانب هذه التشابكات التي تتصل بالميادين الاجتماعية والنفسانية أو ما اتُفق على تسميته بمجالات علم النفس الاجتماعي، عن طريق محاولة اقتفاء اثر وتحديد منحى الرحلة التاريخية لهذا العلم من بداياته كعلم نفس فيزيولوجي تجريبي، مروراً بمرحلته كعلم نفس اجتماعي تجريبي.. ووصولاً الى أهم توجهاته الحالية كعلم نفس اجتماعي عيادي.

وبتحديد أكثر: تَطوُّر موضوع علم النفس من موضوعات الفيزيولوجيا الى موضوعات الاجتماع ووصولا الى ما يسمى بموضوعات **علم النفس الاجتماعي**.

ثم تطوُّر منهجيات وتقنيات علم النفس من المنهجيات والتقنيات التجريبية المختبرية الى المنهجيات والتقنيات **العيادية**.

النظريات النفسانية وعلم النفس الاجتماعي

يمكن ايجاز التأثيرات التي تركتها نظريات علم النفس اجمالاً، على توجهات علم النفس الاجتماعي في مساره لتحديد موضوعه ومنهجياته على الشكل التالي[1] :

* **نظرية التعزيز والتشريط ، ونظرية الشكل** :

هاتان النظريتان تشددان على المعطيات الفيزيولوجية كأساس للسلوك الانساني، وتعتمدان المنهجية التجريبية كوسيلة لدراسة هذا السلوك.

فالنظرية التشريطية عملت بدءاً من **بافلوف** (Pavlov) على دراسة قواعد المنعكسات السلوكية اللاتشريطية والتشريطية منها، وذلك في اطار المختبر في محاولتها الوصول الى فهم الفرد. وانطلاقا منها، استهدفت ابحاث واطسون (Watson) دراسة قواعد السلوك الانساني كسلوك تشريطي بمجمله، وذلك عن طريق دراسة قوانين العلاقات التي تربط بين المثيرات المختلفة والاستجابات المقابلة لها؛ وجرى ذلك ايضاً في اطار مختبري محدد، وقد رأى واطسون ان غالبية انواع السلوك الانساني مكتسبة، واختصر الى حد كبير انواع السلوك اللامكتسب.

ونشير إلى أن واطسون انطلق من بافلوت وطوّر في أبحاثه ـ وذلك بأن تحوّل بعلم النفس من علم نفس فيزيولوجي فردي إلى بداية اتجاه علم النفس الفيزيولوجي الاجتماعي ونفى دور الفرد الذاتية في العملية السلوكية.

وبعد واطسون انتشرت الابحاث في اطار ما يسمى بالسلوكية المحدثة التي يمثلها **سكينر** (Skinner) في اطار ابحاثه المختبرية ايضاً وضمن ما يسمى بـ « علبة سكينر » ونظريته حول التشريط الاجرائي : ويشدد سكينر على أهمية مساهمة الفرد في ابتكار السلوك واستيعاب الاطار الاجتماعي له... حتى وصل الى القول بقوانين التعزيز التي تشكل اساس التدامج الاجتماعي، والتي تعتبر أن المجتمع هو مختبر كبير، وان المختبر هو مجتمع صغير... وكلاهما تحكمه نفس القوانين التعزيزية... وعلى هذا يمكن تفسير السلوك المنحرف على انه ناتج عن اختلال قواعد الثواب والعقاب في اطار وبنية المختبر الاجتماعي العام.

وتمكن الاشارة هنا ايضاً الى ان سكينر يمثل التيار الاميركي الذي يرى في علم النفس الاجتماعي (الفيزيولوجي) والتجريبي منطلقاً لدراسة العلاقات الاجتماعية.

اما النظرية الجشطلتية – الشكل – (Gestalt) فقد كانت ترى نوعاً من التوازن بين المعطيات الفيزيولوجية، والمعطيات الفيزيائية والمعطيات السيكولوجية فيما يتعلق بعمليات السلوك والادراك الانسانيين. وهذا ما

عرف باسم مبدأ الايزومورفيسم (isomorphisme)

وذلك يعني ان الفرد هو غير فعال بشكل ذاتي في هذه العمليات. ولكن الشكل التنظيمي الخارجي، فيزيائياً فيزيولوجيًّا. يفرض عليه فرضًا فيرى الأشكال كما هي مبنية موضوعيًّا في حقلها الأساسي. وقد نتج عن ذلك حصول أبحاث عديدة في إطار علم النفس الاجتماعي التجريبي. وقد بحثت كلها عن قواعد وقوانين العلاقات بين الأفراد في إطار الجماعات ذات البنى والأشكال المختلفة... وتأثير ذلك على أنواع السلوك الاجتماعي.

نظرية الحقل: وهي استمرار لنظرية الشكل، حيث كان **لوين** ــ Lewin ــ من مؤسسيها (وسنعود للحديث عن لوين في اطار حديثنا عن الجماعة وديناميتها)، وهي ترى ان القواعد الفيزيائية هي التي تحكم الحقل النفساني الاجتماعي الذي يتحرك الفرد من خلاله. وعلى هذا فان سلوك الفرد هو عبارة عن محصلة تشابك وتفاعل حاجاته مع محيطه اي حقله الاجتماعي الفيزيائي. وقد نقل لوين ابحاث علم النفس الى الاطار الاجتماعي الدقيق وفي اطار المختبر... وحدد مفاهيمه لهذه القواعد بشكل متقارب ومتجانس مع المفاهيم الفيزيائية والاجتماعية في آن واحد.

نظرية الحالة والدور Statut et Rôle :

وصاحبها لينتون ــ Linton ــ الاميركي (في كتابه الشهير: الاساس الثقافي للشخصية). ويرى ان السلوك الفردي متلازم مع الثقافة التي هي نتاج اجتماعي. وعناصر الثقافة كثيرة. منها ما هو آني حالي ومنها ما هو كامن. وفي هذا الاطار تحدث لينتون عن: الانماط الثقافية المبنية والانماط الثقافية المعاشة. وعن المواقع والحالات الاجتماعية التي يحتلها الفرد في البنية الاجتماعية والادوار المطلوبة منه لكي يبرّر وجوده في هذه المواقع... الى أن حدَّد اسباب واشكال حالات الصراع على انها تتأتى من تضارب الحالات والادوار عند الشخص الواحد. وتحدث لينتون كذلك عن المواقف الاجتماعية والفردية.. وعن خصائص الثقافة عامة.

وعلى هذا فإن لينتون نقل دراسات السلوك والشخصية إلى الاطار البنيوي الاجتماعي والجماعي. ودفع هذه الأبحاث منهجياً في اتجاه الاتنولوجيا والانتروبولوجيا.. بحيث تم التشديد على دراسة التنوع في الثقافات والحضارات بشكل مقارن (كالمقارنة بين ما يسمى بالحضارات البدائية والحضارات المتقدمة!). ومن الذين انطلقوا من دراسات لينتون نذكر **كاردينر** ــ Kardiner ــ في كتابه الشهير: «الفرد في مجتمعه».. حيث حاول ان يزاوج بين مفاهيم التحليل النفسي ومفاهيم الاتنولوجيا مع لينتون.. فتحدث عن «الشخصية القاعدية» او «الشخصية الاساسية».

وعلى ذلك نرى ان علم النفس الذي اخذ منحى اجتماعياً بدأ التوجه نحو الابحاث الانتروبولوجية عامة وبدأ بذلك يخرج من اطار المختبر المحصور والمحدد الى الاطار الحضاري الأوسع.. وبحيث ظهر التشابك واضحاً بين علم النفس وعلم الاجتماع: موضوعاً ومنهجية.

النظرية التحليلية:

وهي التي تدرس الفرد اساساً في محيطه المحدد والضيق، اي في اطار الاسرة وانطلاقاً منها، وتركز على المتغير الجنسي كمتغير اساسي في السلوك الانساني. وهي لذلك تبحث عن الاشكال المختلفة لما يسمى بالتوظيف والتصريف

الغريزي، النزوي أو الليبيدي. وهذه النظرية تدرس السلوك الانساني على انه مظهر رمزي عارض، ومؤثر فوقي لخلفيات البنية النفسية اللاواعية. ذلك ان كل ظاهرة نفسانية هي عناصر لمعطيات جدلية تتراوح بين الوعي واللاوعي.

وتشير هذه النظرية الى ان التفاعلات والتشابكات والتناقضات، والتجاذبات هي من خصائص السلوك الانساني.. وهي لذلك لا يمكن ان تدرس إلا بشكل مستمر وديناميي، ولا يمكن ايضاً الوصول الى تحديد عددي وكمي لها... ولا يمكن بالتالي الوصول الى تعميمات احصائية مطلقة... وعلى هذا الاساس نستطيع فقط الاعتماد على دراسة الحالات étude des cas على شكل مؤشرات عامة تحدد المسار العام للسلوك الانساني، وقد ركز **فرويد في عدد كبير من كتاباته على هذه المعطيات (التي سنعود اليها)**، **وتبعه رايش** Reich في تطوير هذه المنطلقات وفي اعطائها البعد الاجتماعي الاكثر وضوحاً وتحديداً. وقد قال رايش بالجدلية والتشابك بين المتغيرين الجنسي العاطفي والاقتصادي الاجتماعي. وحدد بذلك القواعد العلمية لما سمّاه بالجدلية النفسانية الاجتماعية... انطلاقاً من الجدلية المادية والتاريخية الماركسية وتفاعلها بالمادية الجنسية العاطفية والهوامية التي قال بها فرويد (في اطار نظريته حول القانون الجنسي) وتوصل رايش بعد ذلك كله الى تحديد عناصر نظريته حول الاقتصاد الجنسي:

قام بتحديد القوانين التي تحكم التصريف الليبيدي والانتاج الاقتصادي عند الفرد.. وانعكاسات ذلك على صعيد الصحة النفسية... في اطار الاشكال المختلفة، للبنى الاجتماعية (التي تُطلقه الطاقات او تقمعها).

وعلى ذلك، فقد حدد **فرويد**، ومن بعده **رايش** المنطلقات النظرية والمنهجية الاستراتيجية لأبعاد ما يسمى بعلم النفس الاجتماعي العيادي من حيث الموضوع (الفرد ومتغيراه الجنسي والاقتصادي في تشابكاتهما وتفاعلاتهما مع محيطه الصغير والكبير من حيث اشباع حاجاته الاساسية) ومن حيث المنهجية (التي تعتمد الهدف الكيفي والنوعي نسبة للزمان المستمر والمكان المحدد بنيوياً وتنظيمياً).

ونعرض هنا ما قاله فرويد[٢] حول هذا الموضوع في اطار المنطق والتحليل التالي:

يرى فرويد ان التعارض غير واضح أو ضروري بين ما يسمى بعلم النفس الفردي psychologie Individuelle وعلم النفس الجماعي أو الاجتماعي Psychologie sociale ou collective وذلك نظراً للاعتبارات التالية:

الفرد الذي يبحث عن اشباع حاجاته الاساسية لا يجد هذا الاشباع إلا مع غيره من الناس، وفي اطار اجتماعي عام (وهذا ما يتضارب و يتعارض احياناً مع ما يسمى بالحالات النرجسية المرضية حيث الاشباع يتم مباشرة مع الذات وبها)؛

والآخر، (Autrui)، يلعب دائمًا في حياة الفرد دور النموذج أو النمط (Modèle) ودور الشيء (objet)، ودور الشريك (associé)، أو دور الند (adversaire). وعلى هذا فإن علم النفس الفردي يظهر ويبرز منذ البدء كما لو كان، وفي نفس الوقت، (وفي جهة ما)، علم نفس اجتماعي بالمعنى الواسع والمشروع للكلمة:

– فمواقف الفرد حيال أهله واخوانه واخواته، وكذلك حيال الشخص الذي يحبه وايضاً حيال الطبيب الذي يعالجه.... اي كل شبكة العلاقات التي درسها التحليل النفسي...– كل هذه المواقف– يمكن اعتبارها عن حق، ظواهر اجتماعية... مما يتعارض و يتناقض مع ما نسميه بالحالات النرجسية أو الذهانية Autistiques التي هي حالات ذاتية قصوى Cas limites تتميز بأن اشباع الحاجات والرغبات في اطارها تحصل مع الفرد ذاته ووحده بمعزل عن الخارج وكذلك بمعزل عن تأثير الأشخاص الآخرين.

وعلى هذا فان التناقض بين علم النفس الفردي وعلم النفس الاجتماعي، لا يتجاوز بعض الحالات الذهانية النرجسيّة النادرة؛ ويمكن لهذا، الاستمرار في القول بأن علم النفس الفردي (أو ما يسمى بذلك) هو علم نفس اجتماعي حسب المعنى المشار اليه اعلاه.

– والفرد هذا، في علاقاته مع الآخرين (أي الأهل، والاخوان، والاخوات، والحبيب والطبيب الخ...) لا يخضع إلا لتأثير فرد واحد أو عدد محدود من الأفراد، الذين يعنون له أشياء محدودة ومميزة (ذاتياً أو موضوعياً).

وعندما يتحدث باحث ما، في ميادين علم النفس الاجتماعي، فانه ينسى هذه الظواهر وهذه العلاقات المميزة؛ و يتحدث فقط عن التأثيرات المتوافقة التي يفرضها على الفرد عدد كبير من الاشخاص الذين يمكن ان لا يعنوا له شيئًا في الواقع وعلى كثير من الأصعدة، لأنهم لم يدخلوا مباشرة دائرة شبكات علاقاته الهوامية والشيئية.

والتحليل النفسي الجماعي أو الاجتماعي يعتبر الفرد كعضو في قبيلة، في شعب، في رهط، في طبقة اجتماعية، في مؤسسة... أوكعنصر اجتماعي في تجمع انساني foule ... وهذا الفرد ينتمي في فترة معينة الى جماعة أو تجمع وفي اطار هدف معين ومحدد.

ويمكن اعتبار هذه الحالات والظواهر، كمظاهر لاتجاه خاص يتميز به الفرد على شكل غريزة جماعية لا تظهر إلا في الجماعة، وعلى هذا، فالتحليل النفسي الاجتماعي، يرفض اعطاء أهمية قصوى للعامل **العددي** facteur numérique ، و يرفض ايضاً القول بأن هذه المعطيات العددية يمكنها فقط أن توكد في الحياة النفسانية للانسان، غريزة جديدة لا تظهر في شروط وظروف اخرى؛ ولذلك فنحن ننطلق من مسلمات Postulats تفيد بأن « غريزة الجماعة » هذه (القبيلة، الرهط، المؤسسة..) التي تجسد ملامح اتجاه الفرد نحو العيش الجماعي من خلال عمليات التماهي وغيرها؛ ليست غريزة أولية instinct primaire بل يمكن تحليلها الى عناصرها الاخرى والأكثر دقة.. وهي موجودة اساساً كبداية في دوائر أضيق (أي أقل عددا من حيث العناصر) وأبعد تاريخياً من التجمعات البشرية المشار اليها. ونذكر على سبيل المثال دائرة الاسرة (الاكثر طبيعية كجماعة). ويرى فرويد أن على علم النفس الاجتماعي أن يهتم– في تطوره– بمعطيات كثيرة أهمها: اجراء المزيد من التصنيفات classification – للأشكال المختلفة للتجمعات الجماعية؛ واجراء المزيد من الوصف الدقيق للظواهر السيكولوجية التي تبرز في هذا الاطار... وكل ذلك يتطلب قدراً ضخماً ومتطوراً من المراقبة والملاحظة العياديتين observation clinique

ويتابع فرويد عرض العناصر المفاهيمية[٣] التي يراها أساسية لفهم الظاهرة النفس اجتماعية، من منطلق عيادي لا عددي، وذلك ما يلي:

- حول النفس الجماعية – l'âme collective –، وهو نقاش مع افكار Le Bon .
- مفاهيم اخرى حول الحياة النفسانية والاجتماعية.
- الايحاء والليبيدو في الجماعة.
- جماعتان اصطلاحيتان: الكنيسة والجيش.
- موضوعات جديدة واتجاهات وابحاث جديدة.
- التماهي في الجماعة.
- حالات الحب والتنويم المغناطيسي.
- الغريزة الجماعية.
- التجمعات والرهط البدائي.
- درجة تطوير الأنا ومثال الانا.
- معطيات اخرى أضافية.

وهكذا، فاننا نرى مع فرويد خاصة، بدايات تحديد جذري في توجُّهات علم النفس باتجاه تحديد موضوعه: اي دراسة الفرد في الجماعة؛ وباتجاه تحديد منهجيته: أي التشديد على البعد الكيفي العيادي وبواسطة التقنيات العيادية. وتجدر الاشارة الى أن التحديدات العلمية الحالية حول موضوع اي علم تتركَّز في دراسة العلاقات Les relations وعلى هذا فان علم الاجتماع مثلا يدرس العلاقات بين البنى الاجتماعية المختلفة، على الصعيد المكبّر macro-analyse كما يقول A. Touraine ، (وعلم الكيمياء يدرس العلاقات بين الأجسام المختلفة... الخ..)؛ على ان علم النفس (العيادي خاصة) يدرس **علاقات الفرد** في مجتمعه ومع غيره من الافراد في اطار اجتماعي محدد، كبُر ام صغُر هذا الاطار، ولكن على المستوى المجهري micro-analyse

* * * *·*

منهجيات وتقنيات علم النفس الاجتماعي

بعد ان حددنا في الصفحات السابقة الاتجاه العام للتحولات التي خضع لها علم النفس: اي تطوره من علم نفس فيزيولوجي الى علم نفس اجتماعي على مستوى الموضوع؛ ومن الاستراتيجية التجريبية الى الاستراتيجية العيادية على مستوى المنهجية والتقنية.. ووصولاً الى شيء من الاستقرار في هذه المسيرة التكوينية مما يتجسد في اعتماد دراسة علاقات الفرد وديناميانه في جماعة الانتماء.... بعد هذا كله نعود الى اعطاء فكرة عامة وسريعة عن التقنيات المعتمدة تقليدياً (تجريبياً وعيادياً) في ميادين علم النفس الاجتماعي؛ مع التركيز على ورشة العمل الفكرية وعلى دينامية وحيوية

الأبحاث المجدّدة في الميادين العيادية خاصة (على مستوى انشاء المعاهد والكليات العيادية الجديدة، أو انشاء المجلات والنشرات العيادية العلمية المختصة، أو اقامة الندوات بهدف شرح اسباب واهداف هذا التوسع الملحوظ...)

فيما يتعلق بالتقنيات عامة، نشير الى ما عرضه دافال Daval [٤] من الطرائق المتنوعة في علم النفس الاجتماعي.

يشير **في القسم الأول** الى علاقة علم النفس الاجتماعي بغيره من علوم الانسان؛ وكذلك الى المصادر المتنوعة التي يعتمدها علم النفس الاجتماعي المعاصر.

وفي القسم الثاني، يستعرض دافال الطرائق المختلفة التي تموّل هذا العلم بتقنياته الضرورية تبعاً لاستراتيجيات ومنطلقات الأبحاث.

في الفصل الأول، يحدد العناصر الرئيسية للطريقة التحليلية، اى التي تعتمد المفاهيم الاساسية للتحليل النفسي التي يمكن ان تفسر الظواهر الاجتماعية للفرد..وللجماعة، ويستعرض ايضاً التقنيات العيادية المتشعبة من النظرية التحليلية.

وفي الفصل الثاني، يتحدث عن المقابلة interview أو entretien، ويحاول ان يحدد عناصرها واسسها ومواقفها المختلفة وكيفية دراساتها للظواهر الاجتماعية والنفسانية، وكيفية جمعها للمعلومات الضرورية في هذا الاطار. ويصنّف المقابلة على الشكل التالي: المقابلة العيادية (اي التي تقابل ما يسمى بدراسة الحالات: étude des cas والمقابلة المغلقة؛ والمقابلة ذات الاجابات الحرة والمفتوحة؛ والاستمارة بعناصرها ومستلزماتها المختلفة (خاصة على الصعيد الاحصائي).

ويتحدث في الفصل الثالث عن سلم المواقف Echelle d'attitude بشكل مفصل، ثم ينتقل في الفصل الرابع الى الحديث عن تقنية السيكودراما حسب مورينو Moreno، ويدرس أثر التحليل النفسي على هذه التقنية.

والفصل الخامس والأخير يستفيض فيه في الحديث عن الاختبار السوسيومتري test sociométrique؛ فيشير الى مفهوم التجاذب télé؛ والذرّة الاجتماعية l'atome social، والاختبار السوسيومتري وتقنياته؛ ثم ينتقل الى عرض الابحاث المختلفة حول تقويم المكانة الاجتماعية statut social والى تحديد مؤشرات المكانة وعمليات التوسع العاطفي العلائقي: ويشدّد في هذا المجال على انواع العلاقات الاجتماعية غير المباشرة، وعلى حالات المعزولين Les isolés عن المجتمع. كما يشير ايضا الى الأبحاث المتعلقة بما يسمى بالاختيارات العلائقية المتبادلة Les choix mutuals وكيفية تأويل نتائجها.. والى غيرها من التقنيات التي تدخل في هذا المجال.

بعض النشرات النفس اجتماعية العيادية الخاصة

تجدر الاشارة الى ما قلناه سابقاً بأن علم النفس الاجتماعي الحديث أخذ منحىً عيادياً وتركّزت أبحاثه الحالية على

تطوير تقنياته انطلاقاً من الزّاد المفاهيمي الفرويدي. ولإعطاء فكرة عن المواضيع المنهجية خاصة التي تحدد هذه الحركة العلمية، نستعرض بعضاً من النشرات الخاصة التي صدرت عن دور النشر والمجلات العلمية (في باريس خاصة) والتي خصّصت لرصد ونشر الأبحاث (وبداياتها) العيادية. ونعرض بالتحديد ما رأيناه مناسباً من النشرات الخاصة التي صدرت عن مجلة Bulletin de psychologie في باريس وعلى سنوات متعددة:

ففي سنة (١٩٦٣) صدر عدد خاص من هذه المجلة[٥] خصص لبحث التقنيات الإسقاطية ومنطلقاتها المفاهيمية؛ ونختار منه:

مقالة آنزيو Anzieu التي يحاول فيها ان يعرض ويدافع عن علم النفس الاسقاطي (حتبار رورشاخ Rorcharch مثلا وغيره من الاختبارات المتفرّعة عن التحليل النفسي) ؛ ويضيف في مقاله اخرى من نفس العدد فيعرض العمليات الاسقاطية التي تتم في الجماعات الانسانية ويكون مصدرها الفرد الذي يتحرك داخل هذه الجماعات.

ومقالة لابلانش Laplanche وبنتاليس Pontalis التي تحاول ان تحدد منطلقات التقنيات الاسقاطية عن طريق استعراض المفاهيم الفرويدية حول الاسقاط.

وفي سنة (١٩٦٨) صدر عدد خاص [٦] لإخراج ميدان علم النفس العيادي الى الصرح الجامعي، كشهادة معترف بها من الجامعات الفرنسية.

ونقتطف منه المقالات التالية:

مقالة فافيرج Faverge حول تقنية التدخل العيادي في ميدان علم النفس الصناعي، وكيفية الاستفادة من هذه التقنية في سبرعور الجماعة في المركبات الصناعية.

ومقالة آنزيو Anzieu التي تعرض اسس المراقبة او الملاحظة العيادية لجماعة مريضة.

ومقالة زمبلوني zempleni التي تتحدث عن العلاقة بين علم النفس العيادي والاتنولوجيا (وهي دراسة حول السنغال حيث تستفيض في شرح أهمية الملاحظة العيادية على الطبيعة في حضارة ما، من الاعتماد على الرؤية والسماع والتحليل لعناصر الثقافة المعنية والمدروسة). وخاصة مقالة السيدة روشبلاف A.M. Rocheblave – spenlé التي ذكرناها في مقطع سابق من هذا المقال؛ وهي من الأوائل الذين حملوا ومازالوا، لواء علم النفس الاجتماعي العيادي، وتدرس معها مجموعة من الباحثين العرب في هذه المجالات):

تتحدث في هذا المقال عن العلاقة بين علم النفس العيادي وعلم النفس الاجتماعي حتى تتوصل الى تحديد ما يسمى بعلم النفس الاجتماعي العيادي. وهي تشير الى المعطيات التالية: علم النفس هو علم التفاعلات المتبادلة inter-action بين الأفراد، ويدرس عمليات الاتصال في الجماعات وأشكال السلوك والقيادة ومستلزمات القائد؛ والوصول الى ذلك، فان التقنيات العيادية تدرس الفرد وجهاً لوجه من خلال المراقبة والملاحظة، واللقاءات الحرة والاختبارات الاسقاطية؛ اما التقنيات الاجتماعية فانها تعتمد الاستمارة واللقاءات المقننة المحدودة:

فمن ناحية نحصل على الدينامية التاريخية للشخصية، ومن ناحية ثانية نحصل على نتائج وتعميمات احصائية وقوانين عامة ذات بعد عددي.

وتستعرض روشبلاف محاولاتها في البحث حول موضوع الأدوار الأنثوية والادوار الذكرية Rôle masculin et rôle féminin انطلاقا من الطريقتين العيادية والاجتماعية كمقدمة للوصول الى تقرير ضرورة استنباط علم النفس الاجتماعي العيادي، فتقول أنها:

– **في مرحلة اولى**: حددت المنمّطات stéréotype الذكرية والأنثوية، اي الصور الذاتية للرجل والمرأة في اطار فئة أو طبقة اجتماعية محددة (عند الطلاب مثلا.) وكانت هذه المرحلة ذات توجهات تقنية اجتماعية حيث تم جمع المعلومات بواسطة استمارة مغلقة خضعت لمعالجة احصائية دقيقة (مما اغفل دراسة الحالات المنحرفة عن السياق الاحصائي العام المتجسد في النسب الاحصائية الغالبة).

– **في مرحلة ثانية**: انطلقت من نفس الاطار الاجتماعي المدروس في المرحلة الأولى (عند الطلاب مثلا)، ودرست الأدوار الذكرية والأدوار الانثوية عند جماعة صغيرة هي جماعة أسرة ما. واجرت هذه الدراسة في بلاد ثلاثة مختلفة معتمدة في آن واحد على دمج التقنيات الاجتماعية مع التقنيات العيادية وذلك عن طريق استعمال الاستمارات المغلقة واستكمالها بلقاءات نصف موجهة مباشرة ومطولة مع اشخاص عينة الأسرة المدروسة... وتضاف الى ذلك جميع الملاحظات والانطباعات العيادية التي سجلتها السيدة روشبلاف. وبنتيجة ذلك تم اعتبار الاشخاص الذين تم اللقاء معهم على انهم يمثلون **جماعة** معينة تتداخل مع الآخرين.

– **في مرحلة ثالثة** عيادية خالصة أخذت الباحثة اشخاص الحالات الخاصة القصوى Cas limits والتي تعتبر حالات منحرفة عن الخط العام (او حالات «مرضية») فيما يتعلق بالادوار الذكرية والانثوية. ومثال على ذلك الشخص الذي يعاني من اضطراب جسماني وله دور اجتماعي يتناقض مع واقعه ومعاناته الجسمانية هذه (او معاناته السيكلوجية ايضاً)، واعتمدت في هذه المرحلة التقنية العيادية المباشرة الاسقاطية:

رورشاخ؛ TAT؛ التصوير الحر؛ اختبار الشجرة؛ اختبارات الذكاء؛ لقاءات غير موجهة... الخ.. وتشير الباحثة الى ان هذه الحالات المرضية تنتهي بأن تتأقلم مع دورها الاجتماعي أخيراً مع استمرار معاناتها طبعاً (درست حالات الاشخاص الذين يخضعون مثلاً لعمليات جراحية تحولهم الى جنس آخر Les inter-sexuels.

وفي سنة (١٩٧٠)، صدر عدد خاص من المجلة نفسها حول موضوعات وتقنيات السيكودراما[٧].

وفي هذا العدد مقالات كثيرة عن مورينو Moreno و الطريقة التحليلية عامة.

وفي سنة (١٩٧٦) صدر عدد خاص آخر من نفس المجلة[٨] وتحت العنوان ذاته واعتبر تتمة لموضوعات وتقنيات علم النفس العيادي الاجتماعي. وقد صدر هذا العدد الخاص عن مختبر علم النفس العيادي في جامعة باريس السابعة.

وقد أُهدي هذا العدد إلى الباحثة الشهيرة والمحلّلة النفسانية من الرعيل الأول في فرنسا مدام فافيز بوتونيه (Mme Favez-Boutogner). وهي التي تابعت وطوّرت محاولات لاغاش (D. Lagache)

الفرنسي الذي شدد على أهمية علم النفس العيادي في اطار وحدة علم النفس. وقد استطاعت مدام فافي ادخال علم النفس العيادي الى مدرّجات جامعات فرنسا وفرض الاعتراف به كمادة للتعليم والبحث في المختبرات الجامعية. وانطلاقاً من محاولاتها الناجحة هذه انشيء مختبر لعلم النفس العيادي في السوربون سنة (١٩٥٩)، واقرت شهادة علم النفس العيادي سنة (١٩٦٧)، واخيراً انشئت وحدة الدراسات والأبحاث في العلوم الانسانية العيادية سنة (١٩٧٠) (UER — S.H.C.) في اطار جامعة باريس السابعة (Paris VII)، بعد ان انقسم الباحثون الفرنسيون في ميادين علم النفس– بعد أحداث أيار – مايو سنة (١٩٦٨) – بين متمسك بالاتجاه التجريبي الفيزيولوجي (ويمثل هذا التيار فريس P. Fraisse)؛ ومتمسك بالاتجاه العيادي الاجتماعي (ويمثل هذا التيار: البرفسور اربوس باستيد Arbousse Bastide أول مدير لوحدة الدراسات والابحاث المشار اليها؛ ومدام فافيز و لابلانش صاحب كتاب مفردات التحليل النفسي والمحلل النفساني الشهير، وغيرهم من باحثي الرعيل الثاني ونذكر منهم مدام روشبلاف، و مدام ريفو دالون (Revaut D'allonnes) [*] في علم النفس الاجتماعي العيادي؛ ثم السيد فيديدا (Fedìda) والباحث المصري المعروف السيد سامي علي في ميدان علم النفس المرضي النفس جسماني psychopothologie somatique ،وغيرهم من الباحثين.

من تنظيمات وحدات الأبحاث العيادية

التيار الثاني، أي التيار العيادي، نظّم وقاد حملة علمية تجسَّدت معالمها في اتجاهين: الاتجاه الأول هو (كما ذكرنا) انشاء وحدة الدراسات والابحاث في العلوم الانسانية العيادية في اطار جامعة باريس السابعة، اضافة الى تخصيص معهد للدراسات العيادية التطبيقية للذين يشتغلون في اوساط الجماعات المريضة او المعاقة؛

والاتجاه الثاني هو بداية اصدار مجلة علمية عن مختبر علم النفس المرضي والتحليل النفسي في وحدة الدراسات هذه... وتعكس هذه المجلة خلاصة أعمال الباحثين في الميادين العيادية.

وفيما يتعلق بالاجراءات التنظيمية والاكاديمية التي تمت نعيد الاشارة الى انها اخذت الشكل الرسمي سنة (١٩٧٠) مع نهايات التحولات التربوية في فرنسا بعد أحداث ايار – مايو – الطلابية.

وبدأت هذه الكلية في جامعة باريس السابعة تركز موادها على الميادين التحليلية والعيادية والاجتماعية ذات التوجهات العيادية ايضاً، وقد وزعت على ثلاث مراحل: مرحلة التحضير العيادي في السنتين الأوليين، مرحلة التحضير للاجازة والجدارة في السنتين التاليتين، ومرحلة التحضير لدكتوراه الحقلة الثالثة من السنتين الأخيرتين. على ان يستطيع الباحث بعد ذلك متابعة «ابحاث العمر» كما يقال من اجل الحصول على دكتوراه الدولة في اطار مختبر الابحاث والدراسات العيادية في وحدة الدراسات ذاتها.

وفي سنة (١٩٧٥) صدر قرار وزاري بانشاء مختبر انيطت به وحده مسؤولية الاشراف على الدراسات والأبحاث العليا تحت اسم: «مختبر علم النفس المرضي العيادي والتحليل النفسي»[٩]

ونعود الى سنة (١٩٧٠) فنشير الى انه مع الاهتمام بتنظيم الدراسات التقليدية الاكاديمية، فان الوحدة أنشأت معهداً للدراسات العيادية التطبيقية[١٠].

والمعهد مفتوح للنفسانيين العياديين الذي يبدأون عملهم في المؤسسات العامة والخاصة و يشعرون بضرورة القيام بأبحاث نقدية حول ممارساتهم العيادية.

والموضوعات النظرية والمنهجية التي يجري التشديد عليها في المعهد (معهد تكوين النفسانيين العياديين institut de formation des psychologies cliniciens هي التالية:

- مقارنة نقدية للأسس النظرية للعلاج النفساني السريع
- مشكلية علم النفس المرضي والجسدي psychosomatique والعمليات الاسقاطية. العلاج النفساني في بعض الحالات المرضية عند الطفل.
- ممارسة الجماعات وديناميانها.
- دراسة ما يسمى بالحالات القصوى cas limits واعادة طرح المفاهيم التي تحكم العلاقات بين المفاهيم التحليلية والمفاهيم الاجتماعية من أجل تقويم آخر وجديد.

ومن جهة ثانية، فقد تتابعت المناقشات والآقتراحات حول توسيع هذه التجربة في اتجاه خلق المزيد من المعاهد المختصة، التي تهتم بهذه المجالات. ونذكر هنا التصورات التي توافق على اقتراحها غرين (GREEN)[١١] وليبوفيتشي (LEBOVICI)[١٢]:

بسبب تسلط الأطباء عامة على الباحثين الاجتماعيين والعياديين من حيث المكانة الاجتماعية وافساح مجالات البحث أمامهم وايضاً بسبب جهل الاطباء عامة لمعطيات العلوم الاجتماعية والانسانية من ناحية؛ وبسبب جهل الباحثين النفسانيين والاجتماعيين للمعطيات العلمية الدقيقة والطبية من ناحية ثانية فلذلك يقترح انشاء معهد للعلوم الانسانية العيادية يجمع الممارسين في المهن المختلفة، التي لها علاقة بالصحة الذهنية عامة (المجالات التالية: البيولوجيا، علم النفس، الاجتماع، الجريمة، الادارة، القضاء...) من اجل التباحث والتداول في شؤون الفرد في المجتمع... على ان توضع الضوابط الموضوعية التي تكفل عدم الانحراف عن المعالجة الصحيحة للمعطيات التي يدور النقاش حولها.

اما ما يتعلق بالنشرات والمجالات العلمية، فقد صدرت عن مختبر وحدة الدراسات والابحاث مجلة جديدة تعنى بالشؤون التحليلية والعيادية تحت اسم: «التحليل النفسي في الجامعة» psychanalyse à l'Université. ويديرها البروفسور والمحلل الشهير لابلانش الذي يعرض المجلة واهدافها في أول عدد صدر منها على الشكل التالي[١٣]:

يشير الى صعوبات خروج التحليل النفسي من دائرة العيادة (وسرير التحليل) والامكانية المتاحة لتخطي ذلك علماً بأن فرويد ذاته كان يعلّم المفاهيم التحليلية في جامعة فيينا....

ويشير ايضاً الى ان التحليل النفسي دخل الجامعة في فرنسا بعد سنة (١٩٦٨) عن طريق محاولات الاجابة على

الطلبات العيادية للطلاب الجامعيين demande d analyse ، ولذلك حاولت وحدة الدراسات العيادية التكيف مع هذا الواقع.

وفي هذا السياق، يرى ضرورة انشاء جهاز أو مجلة (هي التي يتحدث عنها و يديرها) تعتبر الواسطة والمنبر الذي ينشر ندوات وابحاث مختبر الوحدة الاكاديمية.

اما أبواب المجلة فتتوزع على ما يلي:

- المحاضرات اليومية في الكلية والتي تعتبر مهمة من حيث مشكلية علم النفس العيادي.
- الوثائق الفردية والجماعية غير المصاغة بشكل نهائي.
- الموضوعات المصاغة بشكل نهائي ونظريe l a b o r a t i o n t h é m a t i q u eومتقدم.

على ان المجلة مفتوحة لنشر الدراسات خارج الجامعة السابعة وخارج فرنسا ومن الاتجاهات المختلفة.

الجماعة، من الالتماس التجريبي، الى الالتماس العيادي

بنتيجة ما سبق، يمكن اعتبار الجماعة القاسم المشترك بين علم الاجتماع وعلم النفس، وذلك من حيث ان الجماعة، على اشكالها المختلفة (عفوية كانت ام مؤسسية كما سنرى) هي الاطار الذي يتحرك من خلاله الفرد حكماً لكي يشبع حاجاته المادية والعلائقية و يعطي بسبب ذلك المبرّرَ الدينامي، البنيوي والوظيفي لقيام الجماعة ذاتها.

وسواء كانت دراسة ومراقبة تحركات الفرد الجماعة تتم تجريبياً أم عيادياً، فان الجماعة تبقى الاطار والميدان الممتاز والممول الاساسي لموضوعات علم النفس الاجتماعي الذي غلب عليه حديثاً المنحى العيادي المنهجي.

وقد تكرس هذا الواقع العلمي مع ظهور عدد خاص من مجلة Bulletin de psychologie)[14] المشار اليها سابقاً، خصص لموضوعات الجماعات ومنهجيات علم النفس الاجتماعي العيادي والتحليل النفسي.

ونعتمد فيما سنقوله عن مناخات هذا البحث المتطور حول الجماعات على مواد هذا العدد الخاص وتحديداً على أهم ما قاله آنزيو في مقالته التقديمية Introduction في تصدير العدد المشار اليه[15].

هناك تياران علميان يتجاذبان دراسات «الجماعات الانسانية الصغيرة»؛

التيار الأول يطبق النموذج الفيزيائي الرياضي حيث ان الجماعة تتحدَّد كحقل قوىً؛ عناصرها الرئيسية هي اعضاؤها واقنية الاتصال فيها بما فيها ايضا من حواجز ومعيقات. على ان حركة الجماعة وتصرفات افرادها تعتبر محصلاً ونتيجة لدمج وتمازج القوى المشار اليها في حقل الجماعة.... تبعاً لقوانين وقواعد يدرسها علم النفس الاجتماعي (ونرى فيها واضحاً اثر الأبحاث الجشطلتية.)، ونحن عندما نضغط على عنصر محدد ومؤثر ومميز في الجماعة فاننا نستطيع ان نغيّر البنية العامة ويمكن تبعاً لذلك ان نحدد المنحنيات البيانية لتوزع حساسيات حقل قوى الجماعة.

ويحاول لوين Lewin ان يحدد بعض قواعد الجماعة: فكل جماعة تعمل في اطار توازن شبه ثابت Quasi-stationnaire equilibre ؛ وهذا الثبات **ينزع** الى مقاومة كل **تغيير** يتخطى التغييرات البسيطة وغير الفاعلة في الحقل العام. والجماعة هي نظام مزدوج من التشابكات بين الاعضاء والمتغيرات داخل الحقل العام.

وانطلاقاً من مقولات لوين وضع اتباعه في Bethel طرائق وتقنيات ما يسمى «التكوين والاعداد بواسطة الجماعة»، وترك بذلك الباب مفتوحاً امام روجيرز Rogers ومورينو Moreno لتطوير هذه الطرائق وانتشارها في الغرب.

اما التيار الثاني، فانه يعتمد التحليل النفسي:

وانطلاقا من فرويد الذي بيّن ان تماسك الجماعة (la cohésion du groupe) يتأتى من عملية التماهي بين اعضائها مع مثال واحد للأنا، فقد تعددت المدارس العيادية، وتنوّعت اجتهاداتها لتفسير عمليات الجماعة.

فالمدرسة الانكليزية في التحليل، خاصة بعد كلين M. Klein ، شددت على البعدين المتلازمين؛ الهوامات والرموز في الجماعات fantasme et symbole . وعلى سبيل المثال، فان الجماعات الموجهة groupe directif تنمي عند افرادها مشاعر التجاذب تجاه السلطة Ambivalence . والجماعة غير الموجّهة non directif تنشط عند افرادها عمليات النكوص البدائية وما قبل الأوديبية مع تضخيم لمشاعر القلق والتفكك، morcellement وكذلك لمشاعر الاضطهاد والانفجار.. وكلها كامنة في كل جماعة مهما ان التحليل يرى ان حياة الجماعة مشروطة اصلاً بالبنية السيكلوجية الواعية أو اللاواعية للأفراد الذين يشكلون هذه الجماعة. (على عكس منطلقات لوين)

ومن حيث منطلقات واهداف دراسة الجماعة، فان اتباع تيار لوين يشددون على تحسين فعالية الجماعة، على أنَّ اتباع التيار التحليلي يرونها وسيلة لوصول الأفراد الى الحقيقة والمعرفة عن ذواتهم وللتعرف المتبادل على حقائق الآخر.

وهذا يدفعنا للحديث عن دينامية الجماعة بذاتها ومحاولة فهم اسس هذه الدينامية عبر تاريخية وجغرافية المحاولات المتنوعة والعديدة في هذا المجال.

وقد أوجدت طرائق الدينامية الجماعية في خلال الحرب العالمية الثانية (سنة ١٩٤٤ بدأها لوين في الولايات المتحدة الأميركية).

والمنطق الذي حكم المحاولات الدينامية الجماعية الأولى كان التالي:

التصرفات الانسانية هي نتاج للحقل الذي يضم القوى السيكولوجية الفردية (وهي الفرضية التي اعتمدها لوين في البداية وحتى وصول هتلر إلى الحكم)؛ مضافاً إليها أن التصرفات هذه هي ايضاً نتاج للقوى الخاصة بالجماعة ككل (وذلك محاولة لفهم العدوان الألماني والياباني بظواهره النازية الفاشية ضد الأميركيين الذين يعيشون اجواء الديمقراطية الاميركية).

والدراسات الأولى المختبرية حول «الجماعات الصغيرة المصطنعة» التي انجزها لوين ومساعدات ليبيت ووايت Lippit et White ، أثبتت تجريبياً (سنة ١٩٣٩) أفضلية المناخ الديمقراطي على المناخ السلطوي أو الفوضوي من حيث فعالية العمل واشباع حاجات المشاركين

وفي نهاية الحرب، تعمَّمت تقنية «الجماعة الصغيرة» في الولايات المتحدة وخاصة الدراسات حول اجواء

الديمقراطية السياسية». وظهرت أول ندوة مطولة حول T Groups التي ملأت مدارات مالي في أعقاب سنة (١٩٤٦) بواسطة خبراء امريكيين وفرنسيين تابعوا ندوات Bethel في هذه المحلة.

أما تبريرات انتشار «الجماعات الصغيرة»، فانها تندرج حسب السياق التالي:

الجماعات الصغيرة هي ملخّص للتكتلات الاجتماعية الكبرى. وعليه فان مشاعر الانتماء والمطابقة والتضامن والتفاعل بين عناصرها والتماسك من حيث الأهداف والنظم والقواعد والقيم المشتركة بينها كلها تعيد توصيل العلاقات الانسانية التي انقطعت تبعاً للتوزيع العملي للعمل في القطاع الصناعي والمدينة خاصة وفي الاجواء البيروقراطية. والجماعة الصغيرة التي يتجمّع اعضاؤها حول مثال اعلى واحد للأنا هي الخميرة الاجتماعية الممتازة (حسب مفهوم اليونان القدماء والاديان المتعددة ايضاً).

على ان الاعتراف الاجتماعي بين افراد قلائل، والعيش معاً تجربة والحقيقة بخلالها النقاش والحديث المحرر اثارا ويثيران دائماً مشاعر الحذر والتوجس والريبة من اصحاب السلطة، والرأي في الحقيقة خوفاً من تكوين الجماعات الفكرية التي تفلت حسب رغبتها من السلطة وتنتقل الى المعارضة والتحرر. والقيام بأعمال خطيرة كمثال للقهر والعادات والتقاليد.

وتجدر الاشارة الى التجربة الفرنسية في مجال الجماعة (اثناء الاحداث الطلابية سنة ١٩٦٨م) حيث حاولت الجماعة الى الوصول الى «الادارة الذاتية» auto-gestion، وهذا ينطلق من اعتبار ان الافراد متساوون ويمكن لكل واحد منهم ان يقوم بأية مهمة، والجماعة هنا وسيلة لتحقيق الرغبات التي توافق عليها الجميع والتفويضات المعطاة لفلان او لفلان هي مؤقتة.

«وجماعة الادارة الذاتية الصغيرة» الفرنسية هذه لم تعد تقنية للتغيير المراقب، ولكنها أصبحت طاقة تفجيرات ثورية. وفي هذا المجال تجدر الإشارة ايضاً الى التجارب الثورية الضخمة والمستمرة التي تعيشها الصين الشعبية في مستوى الحياة الجماعية والمناقشات الحية في الجماعة مما ينزع الخلافات الفردية ويضيقها ويعطي فعالية اكبر للعمل الجماعي والديمقراطي.

وفي هذا المجال كذلك يمكن ان يقال الكثير عن التجربة الجديدة عن التحرك الجماهيري في اطار جماعات عفوية او منظمة في الجماهيرية العربية الشعبية الاشتراكية.

وفي هذه المجالات كلها، فان الجماعات لم تعد لها الحدود التي تحدث عنها لوين، وانما نحن في اطار «الجماعات الواسعة» Groupes Larges ذات الأعداد الفعلية المتغيرة. وهناك ايضاً جماعات اخرى تمتاز بأنها تتّحد حول قائد مفروض أو منتخب (وقد اشرنا الى ذلك في حديثنا في بداية هذا المقال عما كتبه فرويد في «محاولات في التحليل النفسي» حول الكنيسة والجيش).

واذا توقفنا عند عرض تاريخية تجربة الجماعات العيادية الخالصة انطلاقاً من فرويد وحتى المحاولات المعاصرة لفهم تحرك الفرد في الجماعة، سواء في اطار جماعة التكوين Groupe de formation أو في اطار جماعة العلاج

النفساني groupe de psychothérapie التي تهدف الى افساح المجال امام الفرد ليوجد في الجماعة، ويعاني فيها ومعها، ويصل الى المعرفة الجماعية وفي اطار الجماعة. فاننا يمكن ان نسجل ما يلي:

– الخلفية الفرويدية العيادية النظرية التي تحرك تقنية الجماعة وتفسرها، تتمثل في كتابات فرويد ذات التوجه الاجتماعي[٦٦] وخلاصتها اسطورة رأى انها موجودة في المجتمعات والجماعات الصغيرة والكبيرة (جيش، كنيسة، اسرة، راي عام الخ...)، والاسطورة هي التالية:

وجد الرهط البدائي في البداية، وكان يُدار ويُقاد من قبل رجل كبير السن، ظالم وقاس ويحتفظ لنفسه بكل نساء القبيلة، ويطرد أولاده الذين بلغوا سن مزاحمته نساءَ قبيلته. ويجتمع الأشقاء يوماً لكي يقتلوا الأب مجتمعين، ولكي يقيموا بعد ذلك وليمة يقتسمون خلالها جسد الأب ويأكلونه.

ويعتبر هذا أوّل اتصال طوطمي Communion totémique يحقق التماهي مع الأب الميت الذي يخيف الأبناء ويثير عندهم مشاعر التحسر عليه في آن واحد. وهكذا يصبح هذا الأب الميت مركزا لتجاذب المشاعر، ويصبح ايضاً مجسداً للقانون الرمزي loi symbolique.

والتماهي مع الوصول الى قانون الأب يشكلان اسس المجتمع الحالي (التاريخي) بأخلاقياته ومؤسساته وثقافته، والمحرمات الاساسية هي اثنتان منذ البدء:

– ان لا تقتل الطوطم الذي هو رمز الأب وممثله Substitut du père.

– وان لا تتزوج من الاقارب l'inceste.

وهذان المحرمان يشكلان العمليات العميقة لنقل وتعميم «مركب اوديب» على المستوى الاجتماعي.

اما بالنسبة للتصور التاريخي للابحاث العيادية حول الجماعة وفي الاقطار المختلفة مع تطور المفاهيم والاساليب (في اطار علم النفس الاجتماعي العيادي) فيمكننا عرض أهمها كالآتي:

١ – في بريطانيا:

نشير خاصة الى تيار كلين، حين ركز اتباعها (سنة ١٩٥٠) على بعدين اساسيين هما البعد الهوامي والبعد الرمزي في الجماعات.

وعلى هذا فان بيون Bion يبين ان اي اجتماع لا يمكن ان يتحرك بفعالية (كجماعة عمل على الصعيد الرمزي) الا اذا تحققت الفرضية القاعدية الكامنة على الصعيد الهوامي بعناصرها الثلاثة المتعلقة بلا وعي الجماعات وهي: الارتباط، والتزاوج ومزدوج الهروب والهجوم. أما ازريل Ezriel فانه يشدد، من خلال ممارساته للعلاج بواسطة التحليل النفسي في الجامعة، على الرغبة عند المرضى لاقامة علاقة شيئية خاصة بينهم والآن مع المحلل النفساني؛ هذه العلاقة يمكن ان تُنقل بشكل دفاعي على غيره من عناصر الجماعة. واذا حصل نوعٌ من الصدى بين

الأشياء الهوامية المختلفة والمسقطة على المحلل داخل الجماعة ومن قبل عناصرها... فينشأ عندئذٍ نوعٌ من التوتر المشترك في الجماعة. وعلى ذلك فان دينامية الجماعة تحتّم وتفترض وجودَ وخلق هذا التوتُّر، أو في ايجاد اواليات دفاعية تمنع هذا التوتر... على تحليلات المحلِّل تتركز خاصة وفقط على «هنا والآن» وتهدف الى القاسم المشترك للهوامات اللاواعية عند عناصر الجماعة.

واكتشف جاك Jaques ان المؤسسات تلعب دوراً دفاعيا ضد القلق البدائي والشعور بالاضطهاد عند عناصر هذه المؤسسات... وتوصَّل الباحث الى ذلك من خلال ممارسة دينامية الجماعة داخل المؤسسات الصناعية.

٢ – في فرنسا:

لاحظ آنزيو ان الجماعة تشكل جسداً متماسكاً، أفراده هم الأعضاء والعمل المشترك للجماعة هو الدفاع ضد هوامات التفكك لهذا الجسد، ويضيف انه طالما ان الجماعة لم تتكوَّن حسب النظام الرمزي Order Symbolique فإنها تتحول إلى مجرد تجمع بشري foule حيث يجسد كل فرد بالنسبة للآخر خطر الافتراس Menace de devoration واستناداً الى أفكار فرويد الأولى حول بنية الجهاز النفساني Premiere topique فان آنزيو يرى تقارباً وتشابهاً بين الجماعة والحلم حيث أن الأفراد يطلبون من الجماعة ان تحقق لهم رغباتهم بشكل خيالي... ومن هنا تواتر الأفكار الفردوسية حول الجنة المفقودة خلال مناقشات الجماعة....

لقد تنادى في فرنسا عدد من الباحثين المهتمين بدينامية الجماعات وكوَّنوا فريق عمل عُرِف باسم: Equipe CEFFRAP. وبنتيجة مداولات ومناقشات وندوات هذا الفريق توصل آنزيو وبرجرانو Berjarano وكايس Kaes سنة (١٩٧٠) الى صياغة نظام نظري متماسك ومفتوح وذي اتجاه تحليلي فيما يتعلق بظواهر الجماعة، وأدى ذلك إلى تحديد (٢٩) بنداً أساسياً[١٧] سميت بالفرنسية:

(Les 29 théses du CEFFRAP sur le travail psychanalytique dans les séminaires de formation)

وهذه البنود فتحت الآفاق امام ابحاث أخرى قام بها مثلث الباحثين المذكورين وتتعلق بالخصوصيات اللاواعية للجماعات الواسعة Groupes Larges ونتائج ذلك على السلوك والتصرف.

– **ومن الابحاث المتفرقة حول الجماعات** نذكر ابحاث غوري Gori حول الكلام في الجماعات Parole، وسكاغليا Scaglia عن مشاعر الاضطهاد في بدايات تكون الجماعة، وجاكوبي: Jacobi حول موقع المراقب في الجماعة، وبونس Pons حول هوامات المشهد البدائي داخل الجماعات في اطار مؤسسات الأمراض النفسية، وتوركا Turcat حول جماعات الأهل Groupes des parents، ودوتريمون Deutremont حول الجسم في جماعة السيكودراما، وسانيي Sagne حول تجمعات الشباب الرافض، وشانوا Chanoit حول التعبير الجسماني Expression Corporelle والعلاج النفساني في الجماعة.

وكذلك توركيه Turquet الذي يشدد على عملية الاحباط داخل الجماعة.. وهذا ما يستدعي برأيه أن يتخذ

المراقب والملاحظ موقفاً يجلب الأمان والأطمئنان والمساعدة presence , soutien, holding . وكل ذلك ايجاد المكان الانتقالي أو المساحة الانتقالية Espace Transitionnel حسب تعبير ونيكوت Winnicott . ونشير ايضاً إلى نظرية وتجارب بيشون E. Pichon حول الجماعة العاملة Group Operatif .

ولجهة التطوير والتجديد في تقنيات ديناميات الجماعة وأهدافها فاننا نعرض الأفكار التالية:

– كانت جماعات التكوين تشدد، من خلال تعليمات مسؤول الجماعة، على الوصول الى معطيات ومعلومات موضوعية عقلانية وواقعية (لا هوامية). وعلى هذا كانت الاهتمامات تتركز على تقديم كل مشارك لنفسه في اطاره الموضوعي وشرح دوافع انضمامه الى الجماعة؛ وتحديد اشكال ادراك الاهداف المتوافق عليها في الجماعة، والتنسيق بين هذه الاهداف ثم تنظيم المهام الكفيلة، بالوصول اليها داخل الجماعة. وبعد ذلك تقيم النتائج قياساً بالأهداف الموضوعية، واخيرا تحليل جماعي وموضوعي للتجربة والصعوبات التي واجهت عمل الجماعة.

وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه اللائحة العقلانية لا تطال المعطيات العميقة واللاواعية لكل جماعة، اي ما يسمى بالمساحة الاسقاطية في الجماعة (ذلك ان جماعة التكوين كانت تنطلق من المعطيات النفس اجتماعية التجريبية ولم تصل الى المستوى العيادى).

– وبتطور الأبحاث في هذا المجال، تم اكتشاف ان الجماعة هي مساحة اسقاطية للمجتمع لكونها مرآة ذات واجهين: واقعي وخيالي. وعلى هذا فان استماع المحلل ومحرك الجماعة لما يقال داخل الجلسات يسمح بقياس وجس نبض الرأي العام بشكل أدق من عملية ما يسمى بـ — *Sondage* —؛ وهذا يسح أيضا بتحديد اتجاهات أو توجهات تطور الأفكار والأذواق والعادات في المجتمع.

وعلى سبيل المثال، فان التوجهات الفكرية الرئيسية في فرنسا مثلاً والتي تشكل الآن محاور الفكر الغربي، امكن رصدها وتحديد بداياتها في اطار مساحات اسقاطية لجماعات صغيرةحيث كانت الافكار تختط طريقها الى النور: من معارضة قانون الاعدام، الى تأكيد الحق في استخدام وسائل تحديد النسل، الى حرية المرأة... الى مكاتب التسيير الذاتي، الى اعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية على اسس جديدة... وخاصة الى الاقلال من **الكلام** في التجمعات عبر ارتفاع وتزايد الوعي بوجود **الجسد** وحقه في الحياة والتصرف (في مواجهة الكلام) كوسيلة للاتصال (وهذه الفكرة الاخيرة هي السمة البارزة والحديثة التي تحكم تقنية الجماعة).

– وادى ذلك على صعيد التقنية الى التالي:

الانتقال من مستوى الجماعات الصغيرة المنظمة على أساس لا توجيهي وعلى اساس المناقشات الكلامية المفتوحة والاهداف والاعمال المحددة (أي ما يسمى: Training group أو groupe d'apprentissage أو T. group الى مستوى ما يسمى بالفرنسية: (groupe de base; groupe d'évolution, groupe de diagnostic; groupe de rencontre) أو باختصار جماعة التطور، التشخيصي واللقاء.

وقد لاقت هذه الجماعات اقبالاً شديداً بدافع حاجة الخروج من العزلة الحضارية المعاصرة، ومن أجل الالتقاء المبسّط والحر مع الآخرين (كي نشعر معاً ونعيش معاً نفس التجربة).

وعلى هذا الأساس تحوّل قانون الجماعة من الكلام الحر والمطلوب في اطار المعرفة في الجماعة، الى القوانين الجديدة التي تهدف الى الوجود المشترك والمعاناة المشتركة في جو تغييب الاهتمامات المعرفية. وذلك بكون بالتعبير الجسدي، والصرخات التنفيسية، والتدليك المتبادل والحمام الجماعي... مع الاحتفاظ بالمساحة الاسقاطية.

على صعيد آخر:

تم الانتقال من الجماعة المحدودة الى الجماعة الواسعة، ومن الجماعة المغلقة إلى الجماعة التي تكبر تدريجياً (Show open groupe) ؛ (Groupe a rotation progressive) ؛ ومن الجماعة ذات الجلسات المتقطعة الى الجماعة على شكل ندوات ذات قوانين متغيرة، ومن جماعة دائرة السيكودراما الاسبوعية المحددة إلى الجلسات المكثفة ذات التراكم الكمي بالجلسات على مستوى أيام نهاية الأسبوع أو حتى الاسبوع كاملاً.

اما على **صعيد وسائل الاتصال**، فما زال الاتصال الكلامي مستعملاً، وكذلك الأجواء الدرامية والاسترخاء والاعمال اليدوية؛ اضافة الى انه في (E Salen) في كاليفورنيا، ظهرت تقنيات جديدة تركز على الجسم وتحمل اسماء جديدة

التقنيات التصريفية البيولوجية (Bioénergétique) والتحليل التبادلي في العلاقات (Analyse Transactionnelle) وما الى ذلك...

اضافة إلى ان قواعد الجماعات غير ثابتة، فيمكن أن يكون الأفراد في وضعية الوقوف أو الجلوس أو التمدد، أو القرفصاء، افرادياً أو جماعياً، أمام طاولة، على سرير، في الأرض، في الماء، عراة أم بثياب خفيفة أو ثقيلة...

وكل ذلك بهدف انتقاء والغاء الفواصل بين الجماعات المصطنعة والموسمية والطبيعية.

الأبحاث النفسانية والاجتماعية في الوطن العربي

ماهي التوجهات العامة التي تميز الأبحاث العربية فيما يتعلق بديناميّة الفرد في الجماعة (العربية)، في المؤسسة (العربية)، في المجتمع العربي العام؟ أو تلك الأبحاث حول ديناميّة الجماعات ذاتها، والمؤسسات والمجتمع؟

ماهي الاستراتيجيات العربية في مجالات الابحاث النفسانية والاجتماعية؟

هل تعتمد المنهجية التجريبية وتقنياتها؟

هل تعتمد المنهجية العيادية وتقنياتها؟

هل تعتمد المنهجيات التوفيقية؟

على الصعيد النظري العام

هل تعتمد الأبحاث العربية، الفلسفات والنظريات المتوافق على تسميتها غربية (من أوروبية: ألمانية وفرنسية أو

أميركية)؟ ام انها تلتزم الفكر السلفي وتوجهاته النظرية بما يُظن أنه يشكل التراث العربي الأصيل... العلمي الكافي ؟

و... هل يشكل التوجه بالبحث نحو الاصالة هذه، القاعدة العلمية المنقطعة – موضوعياً – عما سبقها وما لحق وسيلحق بها من مستجدات البحث العلمي العالمي؟!

وأيضاً: ما هي حال الدراسات العربية الميدانية – في المجال الذي نحن بصدده؟ – وما هي خططها والأولويات المحددة وكيف تبرز؟ ثم، ما هي دور النشر و الكتب والمجلات والنشرات العلمية التي تصدر عنها في ميدان البحث الذي يعرض له هذا المقال؟ وما هي المكتبات ودور المطالعة المتخصصة في العلوم النفسانية والاجتماعية واين الجو العلمي الذي يسمح بالتوسع في هذا الموقف العلمي التطبيقي الضروري؟

ما هو واقع المجامع العلمية المختصة وهل يتوافق فقهاؤها حول طرائق تحت المفاهيم والمصطلحات في العلوم الانسانية الاجتماعية؟ و «قبل كل شيء»، ما هي عناصر الاستراتيجية العربية العليا التي تخطط لكشف الواقع العربي كشفاً علمياً وموضوعياً ضمن سلم أوّليات تنسّق وتموّل الأبحاث العلمية الاجتماعية؟

كل هذه التساؤلات تجد حتماً اجابات عليها في وطننا العربي، ولكننا لا نملك، نحن الاجابات كلها، ذلك ان هذا الشيء يتطلب كشفاً عاماً ودقيقاً على التجارب العلمية، التي تغطي بلاد العرب المترامية الأطراف.

و «الانطباع» الذي يتكوّن لدينا حيال هذه التساؤلات يتلخص في ان الدراسات والأبحاث العربية تتميز بالتضخم والتوسع غير المخطّط وغير المتوافق مع الحاجات والأمكانات، وينقصها التنسيق العملي العلمي.

نحن نعرف يقيناً ان هناك محاولات رائدة في الوطن العربي في هذه المجالات: في التحليل النفسي مثلاً، اسم «البروفسور» زيور «واتباعه» معروف جيداً وعلمياً، ولكن محاولاته الجادة لم تصمد كثيرا امام اغراءات البحث العلمي في الخارج حيث «هاجر» الباحثون بحثاً عن أجواء «الفريق العلمي» و «الجو المساعد» وهرباً من القيود البيروقراطية الخانقة... والنتيجة ان البحث العلمي العربي يفتقد بشكل متزايد بعضاً من خيرة باحثيه ويُفقدة بذلك كثيراً من امكانية التوافق مع الواقع العربي البكر وضروراته كشفه.

ولنا في المحاولات الجادة في «التعريب» العلمي والميداني لعلم النفس (في الجامعة اللبنانية) مثال آخر لما يتعرض له الباحث العربي من المحاصرات والمضايقات.

وكذا في المحاولات الجدية في علم الاجتماع (الميداني).

مأزق علمي وحضاري نعاني منه! فهل من أمل في نور علمي (عربي) جديد. ربما؟!

المراجع

١ - وتصدر عن Anne-Marie Rocheblave-spenle. CDU. (Centre de documentation anniversitaire 1971) U.E.R. SHC de l'universite de Paris VII psychologie sociale clinique

وكانت هذه الكلية قد بدأت سنة ١٩٧٠ وأخذ اتجاه علم النفس الاجتماعي العيادي يبرز على حساب علم النفس التجريبي .

٢ - Freud Essais de psychanalyse". Payot. 1967. 2eme . Partie psychologie Collective et analyse du moi. Introduction - p.p.83-85 et suite.

٣ Freud "Essais psychanalyse" payot 1967. 2eme Partie. psychologie Collective et analyse du moi. p.p.86-175.

٤ - Bulletin de psychologie special 1970-285-XXIII-13-19:Lepsychodrame.

٥ Bulletin de psychologie-spécial 1976-XXIV-322-mars-avril psychologie clinique II.

٦ - Roger Daval. "Traite de psychologie sociale." Tome premier, (Les methods): P.U.F. Paris, 1967.

٧ - Bulletin de psychologie - special 1963 (30 Novembre); 225 - XVII-20 psychologie projective.

٨ Bulletin de psychologie - spécial 1968-27-XXI-15-19. Psychologie Clinique.

٩ "Laboratoré de psychopathologie clinique et de psychanalyse" de Paris VII

١٠ Psychanalyse à l'Université - Tome 2 - No.8 - Septembre 1977. p.733-734

١١ psychanalyse à l Université - Tome 2 - No. 5 - decembre 1976. p.177-180.

١٢ psychanalyse à l'Université - Tome 2 - No. 7 - juin 1977. p.557-559

١٣ psychanalyse à l'Université - Tome 1 - No. 1 - decembre 1975 - (éditorial de J. Laplanche).

١٤ Bulletin de psychologie-spécial 1974-groupes: psychologie sociale clinique et psychanalyse.

١٥ ibid - article de D. ANZIEU - (introduction) (professeur et chef du laboratoire de psychologie clinique et pathololegique de l'Université de Paris X - Nauterre).

١٦ - Freud - Totem et Tabou Payot - Paris. (ecrit en 1913).

١٧ Freud - Malaise dans la civilisation. P.U.F. Paris. (écrit en 1930) Bulletin de psychologie-Special p.p.16-22

(*) اعتمدنا في هذه المعلومات على مدام ريفو دالون (**Revaut D'allonnes**) التي اخذت مكان مدام روشبلاف (Rocheblave) التي كانت اخذت بدورها مكان مدام فافيز (Favez) في مختبر جامعة باريس السابعة في علم النفس العيادي والاجتماعي. ومدام ريفو دالون تهتم بالعمليات النفسانية التي تخضع لها المرأة عند الولادة (بدون ألم أو بألم): C.R. d'allonnes: le mal joli - 10.18.1976. Paris **(accouchement et douleur)**